ضـوء قـمري

همدان دماج

بدأت الرياح تلعب بستارة الغرفة البيضـاء، ممـا دفـع بالممرضـة الآسيوية لإغلاقها بعتاب لم يفهمه، فقد فتح النافـذة مـرة أخـرى رغم تحذير الأطباء من تيارات الهواء التي قـد تصـيبه بالتهابـات رئوية، وهو ما لا يحتاجه مطلقاً. فعلى الرغم من أن الخريف كان لا يزال يحاول إقناع وريقات الأشجار الضخمة بالسقوط، إلا أن الشتاء كان قد قدم مبكراً هذه السنة على غير العادة.

كان يبتسم بمـودة مصـطنعة للممرضـة البدينـة الـتي بـدت لـه "كبغل" هائج وهي تحاول إقناعه، بلهجتها المكسرة، بأن لا يفتح الشباك مرة أخرى. كـان لطيفـاً معهـا، يحـاول دائمـاً أن يكسـب مودتها، خاصة أنها كانت المسؤولة عن ضـرب الإبـر العضـلية. فكان يعطيها نصف ما يتفضل به الزوار الذين بدأوا يتناقصون

هذه الأيام؛ هذا ما جعلـها تتحمـل، فيمـا يبـدو، لوقـت طويـل، مزاجه المتقلب وتصرفاته الطفولية، رغم أن الأطباء أكدوا لها أن نوبات السكر قد انتهت منذ زمن طويل.

* * *

أغمض عينيه طويلاً، دون جدوى؛ لا أثر للنـوم علـى الإطـلاق. كان ثمة أرق مثقل يباغته بين حينٍ وآخر. وأحـس بـبرودة تسـري في جسده كبرودة الضوء القمري لـذلك اليـوم البعيـد الـذي لم تستطع ذاكرته طوال سـنين عديـدة أن تـزيح صـخور تفاصـيله الخرافية عن صدره المقبوض.

كانوا شباباً مـدججين بكـل أنـواع الأسـلحة، وكـان خامسـهم. يرتسم ظلهم الخافت على طرقات القرية الهامـدة، يتسـلق بخفـة أشجار "العثرب" المنتشر على جدران الحقول الخضـراء وعلـى جوانـب الطريـق. كـان القمـر مكـتملاً تلـك الليلـة. وكانـت السحب الماطرة قد انقشعت تماماً، وهمدت القرية، ولم يعد هناك ما يتحرك في جوفها سوى ظلهم القمري الذي بدأ يزحف علـى

جدران المنازل المطفأة، والخائفة. لم يكن الباب الصغير لذلك المنزل قادراً على الصمود أكثر، فانفتحت ضفتاه الخشبيتان لركلاتهم المتوحشة.

* * *

لم يوقظ صراخ الأسرة في الداخل نوافذ القرية النائمة. ولم يجرؤ أحد من الجيران أن يخرج رأسه من كيس النوم. كانوا فقط يتمنون ألا يزحف "الظل القمري" على جدران منازلهم. أسكتت رصاصة سريعة قلب الأب الذي تمزقت روحه بحثاً عن الخلاص. حاول جاهداً يائساً أن يقنعهم بأنه لا يفهم شيئاً، أنه لا يعرف أحداً، وأنه لم يرَ ولده منذ شهور عندما فرَّ من القرية. أقسم لهم بكل ما يتذكره من المقدسات، أنه مزارع بسيط لا يفقه شيئاً، أنه لم يبرح حقله منذ الصباح، ولم يغادر القرية منذ شهور عديدة، وأنه...، وأنه... تناثرت الدماء على ثوب زوجته الذي بدأت أيادٍ كثيرة تمزقه. قاومتهم بشراسة قبل أن يطلق

أحدهم رصاصة أخرى. وهوى جسدها المنهوش على الأرض، وامتزج دمها بعرق صدرها العاري.

* * *

كان خامسهم. وكان المكان قد امتلأ برائحة الموت. ظل واقفاً، متسمراً، يشاهدهم وهم يفتشون بعبث صناديق الثياب الحديدية المزينة برسومات رخيصة. وامتزج الدم المتجمد بنقوش الحصيرة المهترئة فأثار في نفسه الغثيان، وتهاوى جسده المرتعش على الأرض وبدأ يتقيأ. كان الكون يدور في رأسه الذي شقه الصداع وهو يتابع بنظرات مهزوزة تلك الأشباح التي تبحث عن شيء لم يعد يتذكره، بل لم يعد يتذكر كيف صار شبحاً مثلهم، وكيف سيق إلى هذا المكان الموحش. وتناهى فجأة إلى سمعه بوضوح صوت طفلة تبكي برعب في زاوية الغرفة المجاورة؛ فارتعدت فرائصه.

* * *

كانوا قد عبثوا بكل شيء، وتقافزت أجسادهم خارج المنزل يحملون أشياء لم يأتوا من أجلها! كان قد تصنم عند باب المنزل المكسور، تتابع عيناه تلك الأشباح وهي تغوص وتختفي في ظلام الجبل الموحش. كان شعور غريب قد تملك حواسه المتبلدة وهو ينظر بوجل نحو جسدها الصغير الذي كان ينتفض ذعراً بين يديه.

* * *

نهض من سريره، وأحكم إغلاق كنزته الصوفية المفضلة، ومد قدميه النحيلتين داخل خفه الصوفي الدافئ الذي "صادره" من أحد الفنادق العالمية في إحدى زيارات الوفد العسكري قبل أعوام. أحكم قبضته على رأس عصاه الطبية التي ضرب يوماً ما بمؤخرتها البلاستيكية رأس طبيبه الأصلع عندما حاول تقييده في إحدى نوبات السكر العنيفة. وتوجه إلى "بلكونة" غرفته في الطابق الثالث من المستشفى "الثوري" المطل على المدينة. كانت المدينة لا تزال قابعة تحت خيمة من الغبار المتصاعد، بينما

بدأت أشعة الشمس تخفف من وطأتها على زجاجات البنايات الآجورية المقابلة وقباب المساجد البيضاء. كان يحس بضجيج المدينة تحت قدميه؛ السيارات، الناس، الأغنام التي تقطع الجسر الحجري القديم وصاحبها الذي بدا متيقظاً من عجلات سيارات الشرطة المارة بين جموع البشر بسرعة جنونية. لقد اتخذها عادة منذ أن قل عدد الزوار في الآونة الأخيرة أن يقضي آخر سويعات النهار مطلاً على مدينته تلك التي ظل يعشقها رغم تجعدات وجهها الذي شاخ والذي لم يعد مألوفاً بالنسبة له.

* * *

ضجيج المدينة يتزايد أكثر فأكثر كلما بدأت الشمس تودع قبة السماء. تسلقت عيناه جدران المنازل المتعبة، وغاص في تفاصيل النبض المستمر للشوارع التي بدت كشقوق في حائط قديم. وتأمل طلاب المدارس، بزيهم المدرسي المتسخ وضحكاتهم المزعجة، عائدين إلى بيوتهم وهم يتقاذفون قنينات المياه البلاستيكية الفارغة التي تملأ الشوارع. وتطلع إلى بائعي التين

الشوكي، بعرباتهم المصطفة أمام بوابة المستشفى، وقد بدوا أكثر نشاطاً في التقاطها من الجرادل المائية وتقطيعها للزوار، الذين عادةً ما تصيبهم آخر النهار بإسهالات حادة. تأمل فتيات المعهد الديني المجاور، بلباسهن الأسود المكتوم، وهن يحاولن الابتعاد من القناني البلاستيكية المتطايرة من الرصيف المقابل. جموع المتسولين الذين كثروا في الآونة الأخيرة، ببشراتهم المتعددة الألوان، وأعمارهم المختلفة، وهم يتقافزون أمام نوافذ إحدى السيارات الفارهة. في الجانب الآخر كان رجل يتبول على جدار مركز تعليم قيادة السيارات الجديد، غير آبه بتعليقات عمال اجتازوه يحملون على ظهورهم المقوسة مواد بناء ثقيلة في طريق عودتهم نحو مجمع المطاعم الشعبية غير البعيد. كانت الشوارع تزدحم رويداً رويداً؛ ففي مثل هذا الوقت تنتهي "الساعة السليمانية"(*)، وعما قليل ستبدأ "المقايل" بنفض غبار روادها لتلقيهم مرة أخرى إلى صدر المدينة. منكسي

(*) تطلق هذه التسمية على فترة ما قبل الغروب في جلسات (مقايل) القات.

الرؤوس، يتأبطون جرائد المعارضة ويكملون مناقشاتهم الأبدية في الطرقات، تحملهم أقدامهم بوتيرة منتظمة نحو الفراغ.
كان الظلام قد بدأ يطرق بوابة السماء، وبدأت أضواء الصيدليات والمحلات التجارية تخترق خيمة الغبار الكثيف، وعما قليل ستهدر المدينة بأصوات الأذان.

* * *

كان كل شيء إذاً يسير كالمعتاد، فإيقاعات المدينة لم تتغير منذ أن دخل المستشفى بعد "أزمته" الأخيرة. لكنه وقبل أن يقفل صفحة ذلك اليوم تناهى إلى سمعه صوت طلقات نارية، لم يحدد مكانها للوهلة الأولى، لكنها ما لبثت أن توالت بشدة لتثير الرعب في جموع المارة والزوار وبائعي التين الشوكي، الذين كانوا قد ألفوا حوادث الثأر والاقتتال في منازعات الأراضي والتهريب منذ أن ساءت الأوضاع الأمنية في البلاد وبدأ الناس يتقاتلون علناً في الشوارع.

* * *

كانت تلمع من بعيد سيارة مسرعة ذات ذيل غباري، ما لبث هيكلها الحديدي أن صار شبحاً يحتضن الرصيف. وتقاطر الجميع نحو السيارة التي بدت من "بلكونة" المستشفى كجسد صرصار ضخم ملقى على ظهره يلتقفه النمل من كل جانب. كان واقفاً متجمداً فاغراً فاه، يكاد جسده النحيل أن يسقط إلى الأسفل. وعلا الهرج والمرج، واختلطت الدماء بمياه عربات التين الشوكي التي سال على الرصيف، فشعر بالغثيان، وتهاوى جسده المرتعش على أرضية "البلكونة" وبدأ يتقيأ. هرولت الممرضة نحوه بسرعة، وقبل أن يدخلوه كان ضجيج المدينة قد تحول إلى بكاء طفولي في أذنيه. وأدار رأسه نحو الجبل المحيط بالمدينة فوجده شبحاً يستظل بضوء قمري، فاغراً فاه، مندهشاً، يتأمل المدينة وقد تحولت إلى طفلة مرعوبة، تنتفض ذعراً بين يديه.

شتاء 1997